مجلة علم النفس

مجلد ٢ | اكتوبر ١٩٤٦ | عدد ٢

التحليل النفسى للأساطير

بقلم أحمد أبو زيد
ليسانسيه فى الآداب

١ — مقدمة

عند المصريين القدماء أسطورة تقول إن جب إله الأرض تزوج نوت إلهة السماء فأولدها أوزيريس وإزيس وست ونفتيس ، وقتل أوزيريس أباه جب وتزوج من أخته إيزيس كما تزوج ست من أخته الأخرى نفتيس . وجمع أوزيريس فى يديه سلطان مصر كلها فأحس ست نحوه بالغيرة والحسد وعول على التخلص منه واستلاب الملك من يديه حتى حانت له الفرصة أخيراً إذ تمكن من حبس أخيه فى تابوت كبير ألقى به فى النيل، ثم أخذ بعد ذلك يتقرب إلى إيزيس يريد الزواج منها ولكنها فرت من وجهه وأخذت تجوب الأرض تبحث عن زوجها وأخيها حتى وجدته . ولكن ست تمكن مرة أخرى من أخيه فأخذ جسده ومزقه قطعاً بعثرها فى أرجاء مصر كلها وألقى بقضيبه فى النيل فأكله السمك . وكان لأوزيريس ابن من إيزيس يدعى حورس صمم على الانتقام لأبيه من عمه فلما اشتد ساعده قتله واستعاد منه ملك أبيه المسلوب . . . وعند اليونان أسطورة تشبه الأسطورة المصرية فى عناصر الميل إلى الشر والجريمة ، فنجدهم يقولون إن فى البدء كان الكاؤوس ومنه خرجت جيا

Gaea (إلهة الأرض)، ومن الأرض خرج أورانوس (إله السماء). وتزوج أورانوس من أمه الأرض وأنجب منها أبناء كثيرين أصغرهم كرونوس. وبينما كان أورانوس يجامع امرأته ذات ليلة جاء كرونوس على غفلة منهما وقطع أعضاء أبيه التناسلية من خلف. وتزوج كرونوس أخته ريا Rhea (والأسطورة تربط فى كثير من النواحى بينها وبين جيا نفسها أى يكون كرونوس بذلك تزوج أمه) وأنجب منها أولاداً كان يأكلهم أولاً فأولاً، ولم يفلت من هذا المصير سوى ابنه الأصغر زوس. وتزوج زوس أخته هيرا ولكن حياتهما لم تكن سعيدة فكانا فى شقاق دائم، وكان ابنهما هيفاستوس ينحاز دائما إلى جانب أمه ضد أبيه فطرده أبوه من السماء وألقى به على الأرض فأصيبت قدمه بالعرج ... وتستمر الأسطورة فى ذلك فتقص قصصاً غريبة كلها تتسم بذلك الطابع الإجرامى المنافى للأخلاق ... وعند البابليين أسطورة عن آتيس الذى أحب أمه سيبيل Cybele وتزوجها ثم لم يلبث أن ندم على فعلته فخصى نفسه؛ وتشبه هذه الأسطورة أسطورة أوديبوس عند اليونان الذى قتل أباه الملك لايوس وتزوج أمه يوكاستيه دون أن يدرى شخصهما، ولما عرف حقيقة جرمه فقئت أمه نفسها وفقأ هو عينيه.

ولو أننا استقرأنا أساطير الشعوب المختلفة لرأينا أنه لايكاد يوجد شعب من الشعوب يخلو من وجود سلسلة طويلة محكمة من الأساطير القديمة تؤلف الجزء الأكبر من حضارته الثقافية، وأن هذه الأساطير يغلب عليها ذلك الطابع الغريب الذى يتميز بالميل إلى فعل الشر والجريمة كما يتمثل فى تلك النماذج القليلة التى ذكرناها. فهناك مئات أخرى من الأساطير كلها تدور حول هذه الموضوعات، فنجد ابناً يقتل أباه أو يخصيه، أو أخاً يقتل أخاه أو أما تتزوج من ابنها. وهكذا الحال فى أساطير كثيرة عند شعوب مختلفة فى أماكن ومن أزمان وثقافات مختلفة أشد الاختلاف مما يدل دلالة قاطعة على أن ظهور ذلك الطابع الإجرامى وترديد تلك الشرور غير المعقولة التى يرفضها العقل ويستنكف الإنسان من وجودها فى نفسه لم تصدر عن مجرد

المصادفة والاتفاق البحت و إنما صدرت عن بعض عوامل أساسية أصيلة فى النفس البشرية ذاتها .

ولكن ما السبب فى إلحاق مثل هذه الخطايا والشرور المنافية لأحكام العقل والأخلاق والتقاليد إلى تلك الكائنات العليا و إلى الآلهة ؟ فى الإجابة على هذا السؤال الإجابة الوافية على أصل الأساطير .

ولقد شغلت الإجابة على هذا السؤال علماء الميثولوجيا (علم دراسة الأساطير) قروناً طويلة منذ أيام اليونان حتى الآن ، ولقد حاول هؤلاء العلماء تفسير تلك الأساطير و إيجاد الحل لهذا السؤال فظهرت بذلك مدارس ونظريات كثيرة كان أحدثها مدرسة التحليل النفسى . ونحن نرى أن من المستحسن قبل أن نعرض رأى مدرسة التحليل النفسى فى أصل الأساطير وتفسيرها أن نعرض سريعاً لتفسيرات المدارس الأخرى أو على الأقل لأمهات النظريات فى التفسير الميثولوجى لنرى إلى أى حد نجحت تلك النظريات فى حل هذا الإشكال ، وعلى ضوء ذلك نرى إلى أى حد أفلحت مدرسة التحليل النفسى فى حله وفى تفسير أصل الأسطورة ونشأتها .

٢ — نظريات التفسير الميثولوجى[1]

ا — لعل أقدم مدارس تفسير الأساطير هى المدرسة التاريخية Historical School أو المدرسة اليوهمروسية (نسبة إلى يوهمروس Euhemerus اليونانى) وهى ترى أن الأساطير ليست إلا قصصاً تروى بعض حوادث التاريخ الهامة التى كان لها أثر كبير فى حياة شعب من الشعوب ، وخشى الناس أن تندثر تلك الحوادث

---

(١) راجع فى ذلك على العموم : محمد عبد المعين خان . الأساطير العربية قبل الإسلام — القاهرة ١٩٣٧ (الفصل الأول) كذلك راجع :

R. Money-Kyrle : Superstition and Society. (Hogarth Press 1939). p. 20, *sqq.*

E. B. Tylor : Primitive Culture. (John Murray. 1929). Vol. I. p. 316, *sqq.*

من الذاكرة فصاغوها فى قالب قصصى مشوق بعد أن أدخلوا عليها بعض التعديلات . ولقد بذات هذه المدرسة — التى كان من أكبر أنصارها شيشرون والقديس أوغسطين — جهوداً جبارة لإرجاع الأساطير المشهورة إلى حوادث تاريخية معينة من ناحية ، ولبناء التاريخ ذاته على أساس هذه الأساطير من الناحية الأخرى . فعند اليونان مثلا أسطورة طريفة تقول إن كادموس Cadmus قتل ذات يوم ثعباناً مقدساً عند الإله مارس واقتلع أنيابه من فمه . ثم دفنها فى الأرض كما تدفن الحبوب ؛ فأخذت الأرض تعلو شيئاً فشيئاً ثم انشقت فجأة و برزت منها أسنة ورماح وحراب أخذت ترتفع إلى أعلى ثم برزت من بعدها رؤوس آدمية عليها خوذات من الصلب ثم ظهرت الأكتاف فالأذرع والصدور وهكذا حتى تكاملوا محاربين مسلحين لم يلبثوا أن انقلبوا جميعاً بعضهم على بعض يحتربون ويقتتلون حتى كادوا يفنون عن آخرهم . فالمدرسة التاريخية ترى أن هذه الأسطورة تسجل فى الواقع إحدى الحروب الأهلية التى كانت كثيرة الوقوع فى بلاد اليونان . وهكذا الحال فى تفسير بقية الأساطير .

بيد أن التأويل التاريخى للأساطير لايمكن أن يصدق على كل أنواع الأسطورة و إن كان يمكن تطبيقه على بعضها بدون شك ، ثم إن هذا التأويل لايبين العلة فى تشابه الملامح الأساسية المشتركة فى معظم أساطير العالم إذ لايمكن أن نفترض أن ذلك التشابه راجع إلى تشابه الحوادث التاريخية فى مختلف الجماعات .

ب — وهناك ثانياً المدرسة الأخلاقية التى تعتقد أن الأساطير ليست إلا نصائح و إرشادات خلقية مصوغة فى قالب قصة لتحث على مكارم الأخلاق . والواقع أن أنصار هذه المدرسة يخلطون دائما بين الأسطورة التى تدور فى الغالب حول الآلهة وخصائصهم ونقائصهم وعاداتهم و بين القصص الخرافى مثل خرافات إيزوب مثلا . ومع أن هناك أساطير قد تظهر فيها الغاية الخلقية بشكل صريح أو مستتر إلا أنها قليلة جداً . ثم إن الأسطورة ليست من عمل شخص واحد حتى يمكن أن يقال إن مؤلفها توخى فيها هدفاً خلقياً معيناً رسمه لنفسه قبل وضعها .

حـ — وهناك أيضاً المدرسة الرمزية allegory وهى تنقسم إلى عدة مدارس من أهمها المدرسة التى ترى أن الأساطير تمثل مظاهر الطبيعة المختلفة ؛ فإذا كان كرونوس يأكل أولاده فإن ذلك رمز إلى الزمن (كرونوس) الذى يطوى أجزاءه طياً . وإذا كان أوزيريس قد تمزق جسمه ودفنت أشلاؤه فى أرجاء مصر جميعها فذلك رمز إلى خصوبة أرض مصر وإلى انتشار زراعة الحبوب وخاصة القمح فيها وإلى أن أوزيريس هو إله الحصب وإله القمح . فهذه المدرسة إذن ترى أن الأساطير كلها وأبطالها رموزاً وتعبيرات عن مظاهر الطبيعة ، وهكذا « تقلب هذه المدرسة الآلهة شموساً وأقماراً وكواكب »[1] .

ومن المدارس الرمزية أيضاً مدرسة ماكس موللر Max Müller وهى من أهم المدارس وأكثرها انتشاراً وقد راجت أفكارها عن تفسير الأساطير رواجا كبيراً بين علماء الميثولوجيا . ومدرسة موللر تؤول الأساطير على أساس الخصائص اللغوية وخاصة على أساس جنس الكلمات المستخدمة فيها ، فلو عرفنا تلك الكلمات (وخاصة أسماء أشخاص الأسطورة) أمذكرة هى أم مؤنثة أمكن تأويل الأسطورة تأويلا مقنعاً . فعند اليونان مثلا أن أپولون رأى الفتاة دافنيه الجميلة فأحبها وأخذ يطاردها وهى تنفر منه وهو يتبعها حتى كاد يصل إليها فابتهلت الفتاة إلى الآلهة أن تخلصها من يديه واستجابت الآلهة دعاءها فانقلبت دافنيه فى الحال إلى شجرة من أشجار الغار . فمدرسة موللر فى تأويلها لهذه الاسطورة تقول إن أپولون كلمة تدل على مذكر ومعناها الشمس وكلمة دافنيه مؤنثة ومعناها الفجر . فمطاردة أپولون لدافنيه ليست إلا رمزاً إلى تلك الظاهرة التى تحدث يومياً وهى أن الشمس تتبع فى ظهورها الفجر وتطرده أمامها .

ولكن نظرية موللر اللغوية لم تسلم من النقد على الرغم من أن كثيراً من العلماء قبلوها ؛ فقد ظلت هذه النظرية تلاقى قبولا كبيراً حتى هاجمها تايلور E.B Tylor

(١) Money-Kyrle : op. cit. p. 20.

ثم هدمها آندرو لانج Andrew Lang و بين أن التخريجات اللغوية التى يلجأ إليها مولر لا تجدى فتيلا فى معظم الأساطير . وقد سلك لانج فى هدم هذه النظرية مسلكا طريفاً حقاً إذ أخذ يطبق طريقة مولر ذاتها على المستر غلادستون رئيس وزراء بريطانيا فأثبت عن طريق التخريجات اللغوية أن غلادستون أسطورة شمسية . وقد بين تايلور فى معرض نقده لهذه النظرية أن الأساطير وجدت عند شعوب لا تعرف لغاتها التفرقة بين المذكر والمؤنث كما هو الحال فى اللغات الآرية والسامية دون أن يمنع ذلك من وجود الأساطير عندهم بكثرة .

٤ — بقيت بعد ذلك النظرية الدينية أو اللاهوتية وهى تربط بين الأسطورة والدين أو على الأصح بين الأسطورة والشعائر الدينية برباط وثيق وترى أن الأساطير ليست إلا قصصاً تقص عن بعض الشعائر والطقوس الدينية التى كانت تمارسها الشعوب القديمة فى حياتها الأولى ، ثم أخذت تزول تلك الشعائر فحيكت على شكل أساطير حتى لا تندثر تماماً .

وقد تكون هذه النظرية أقرب النظريات إلى الصواب ، فالصلة وثيقة جداً بين الأسطورة والدين خاصة وأن الأساطير تدور فى الأغلب حول الآلهة ، ونحن لانزال نجد عند كثير من الشعوب البدائية المعاصرة وخاصة عند قبائل سكان استراليا الأصلية أنهم فى حفلاتهم السحرية يقومون ببعض طقوس الغرض منها تمثيل وتصوير الأفعال التى يعتقدون أنها من خواص الجد الطوطم ، كما أن الطقوس الطوطمية التى يمارسونها فى مرحلة تنصيب المراهقين يظهر فيها شىء من العلاقة بالأساطير التى تدور حول هذه الطواطم[1] ، فلا يبعد إذن أن تكون الأساطير بدورها نوعا من هذه التمثيلات لتلك الخصائص الطوطمية . كذلك يدور جانب كبير من أساطير الشعوب المتمدنة القديمة كمصر واليونان حول بعض حالات خاصة بالآلهة من زواج وموت

(١) Géza Roheim : Riddle of the Sphinx. (Hogarth Press 1934) P. 185. Money-Kyrle : op. cit. p. 21.
أحمد أبو زيد : التحليل النفسى للعقل البدائى (عدد فبراير ١٩٤٦ من مجلة علم النفس ص ٣١٠–٣١١)

وتمثل هذه الحالات فى شعائر يظن أنها كانت لازمة جداً بالنسبة لخصوبة الأرض والإنسان والحيوان ، فحالات الزنى التى تلحقها الأسطورة ببعض الآلهة وأمهاتها إنما هى تمثيل لما كان يحدث بالفعل من حالات الزنى المقدس الذى كانت تمارسه تلك الشعوب فى بعض الأعياد لتضمن خصوبة الأرض ووفرة المحصول . ولكن على الرغم من أن هذا التأويل قريب من الصواب كل القرب إلا أنه لايرد عناصر الأسطورة إلى الأصول الأولى التى صدرت عنها وإنما تنقلها إلى ميادين أخرى كالسحر والدين ، وهذه ذاتها صدرت عن أصول فى النفس البشرية فهى تحتاج إلى التفسير والتأويل والتحليل .

فهذه المدارس الرئيسية إذن (وهناك مدارس أخرى أقل منها أهمية) تشترك كلها فى أن تفسيراتها للأساطير تفسيرات جزئية لاتنطبق إلا على بعض أنواع خاصة من الأسطورة ، وأنها تلجأ إلى تفسيرات أقل ما يقال فيها إنها ليست تفسيرات نهائية . إن الأسطورة وليدة النفس البشرية والتفسير الصحيح هو الذى يردها إلى العناصر الأصلية فى النفس . ومن هنا كان إخفاق هذه المدارس فى العثور على جواب للسؤال الذى سألناه فى بداية هذا الفصل ، إلى أن تصدت لذلك مدرسة التحليل النفسى وأدلت بدلوها بين الدلاء .

٣ — التحليل النفسى للأساطير

التحليل النفسى فى أصله طريقة ابتدعها سيجموند فرويد S. Freud لمعالجة الأمراض العُصابية كالهستريا وغيرها من حالات الاختلال العصبى الوظيفى functional nervous disorders ، وقد وجد أن هذه العصابات تنشأ عن بعض العوامل العقلية اللاشعورية أو عن بعض الرغبات الانفعالية المكبوتة فى النفس والتى نشأت فى الأصل نتيجة لاتصال الفرد بغيره من الناس وخاصة فى الطفولة . ولا شك فى أن للجو السيكولوجى الخاص بحياة المنزل وللانفعالات المعقدة الكثيرة التى تنشأ

عن مختلف أنواع العلاقات والصلات العائلية أثرها البالغ فى خلق الإنسان وشخصيته وسلوكه ، وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن أثر العائلة أكبر بكثير مما كان يظن . والواقع أن الطفل فى موقفه وسلوكه حيال أفراد العائله إنما يعين فى نفس الوقت إلى حد كبير بعض المظاهر الرئيسية فى علاقاته بغيره من الناس فى المستقبل ، كما أن جزءاً كبيراً من سلوك الفرد إزاء المشكلات التى تعرض له فى الحياة يمكن تأويله وتفسيره على ضوء موقفه الذى كان يقفه إزاء الصعوبات التى كانت تصادفه فى حياته العائلية أى أن الحياة العائلية تلون سلوك الطفل المستقبل بلون خاص . وقد اهتمت مدرسة التحليل النفسى بمعرفة أثر العائلة فى الفرد ونجحت إلى حد كبير فى تبيين طبيعة هذا الأثر ، ويرجع ذلك النجاح إلى أن علماء علم النفس التحليلى لم يقصروا أنفسهم ولا أبحاثهم على دراسة مكونات النفس الشعورية التى يمكن استكشافها مباشرة بالاستبطان introspection بل ذهبوا إلى العوامل اللاشعورية التى تتدخل فى سلوك الفرد . فالقوى اللاشعورية في العقل تعمل دائماً فى حياة الفرد سواء فى حالة اليقظة أوفى حالة النوم ، كما أن لها أثراً عميقاً فى كل سلوكه الظاهرى ؛ ومن هنا كان للاشعور أهمية قصوى لفهم طبيعة الحوافز التى تحفز الإنسان فى سلوكه[١] . فجزء كبير إذن من ذلك السلوك يكون موجهاً بتأثير بعض الميول والرغبات اللاشعورية التى اكتسبها الإنسان فى طفولته ولكنها لم تلبث أن كبتت أو تقهقرت إلى مناطق اللاشعور نظراً لما تحتويه من عناصر غير مرغوب فيها كالألم أو الميول العدائية أو الرغبات الداعرة أو غير ذلك . ولكن هذه الانفعالات على الرغم من كبتها تؤثر فى سلوك الإنسان دون أن يشعر بها ، فكأن الانفعالات المكبوتة تكون بذلك فعالة أو إيجابية وإن كانت فى نفس الوقت لاشعورية[٢] .

ولكن هذه الرغبات الانفعالية المكبوتة قد تجد لها متنفساً فى الأحلام أو فى

---

(١) Flügel (F.C.): The Psycho-Analytic Study of the Family. (Hogarth Press 1939). P. 8

(٢) Money-Kyrle : p. 26—Freud : A General Selection (Hogarth Press. 1937) p. 11. *sqq.*

أحلام اليقظة وخاصة فى تلك الأحلام التى يسميها فرويد الأحلام النموذجية typical dreams وهى الأحلام التى يحلم بها عدد كبير من الناس أو يراها نفس الشخص فى أوقات متفرقة[١] فالأحلام بذلك تعبر عن رغبات حقيقية عند الشخص ولكنها رغبات مكبوتة فى اللاشعور . وقد وجد رانك Rank وأبراهام Abraham أن الأحلام النموذجية فيها تشابه وقرابة كبيران جداً مع نماذج الأساطير المشهورة فى العالم . فالأسطورة كالحلم إذن ليست إلا تمثيلاً لنفس الانفعالات الرئيسية اللاشعورية ولكن فى صورة مشوهة متنكرة ، ومن هنا كانت للاحلام أهميتها فى دراسة الأساطير دراسة سيكوتحليلية psycho-analytic وقد اهتم بذلك على الخصوص ريفرز Rivers وجيزا روهايم Géza Roheim فمدرسة التحليل النفسى إذن ترى أن الأسطورة كالحلم تعبر عن الميول الانفعالية اللاشعورية التى كبتها الطفل أثناء حياته — وخاصة أثناء طفولته المبكرة — من تجاربه وعلاقاته مع أفراد العائلة ؛ وليست الأساطير بذلك إلا نوعاً من إشباع تلك الميول الانفعالية المكبوتة[٢] . وعلى ذلك فلدراسة الأساطير لا بد أولاً من أن نبين موقف الطفل فى العائلة واتجاهاته attitudes إزاء أفرادها الذين يتصل بهم منذ ولادته ويتقبل منهم أولى وأعمق الانطباعات الخارجية التى تكون لها أثر كبير فى حياته النفسية . ويمكننا فى ذلك أن نميز بين موقفين يقفهما الطفل فى العائلة :

أولاً : موقف الطفل من والديه

ثانياً : موقفه من إخوته وأخواته

وسوف نتناول هذين الموقفين هنا بالبحث لأن على ضوئهما يقوم التفسير التحليلى للأساطير ، ذلك التفسير الذى يحاول إرجاع الأسطورة إلى العوامل اللاشعورية المكبوتة فى النفس والتى تولدت عن علائق الطفل بأفراد عائلته .

(١) Freud (S) : Interpretation of Dreams, p. 219.

(٢) Malinowski (B.) : Sex and Repression in Savage Society. (Kegan Paul. 1937) p. 104.

أولا — موقف الطفل من والديه :

١ — كان من أهم النواحى التى درسها فرويد ناحية تطور حياة الطفل الانفعالية والعاطفية والدور الذى تلعبه فى ذلك العوامل السيكولوجية التى تربط بين الطفل ووالديه وخاصة ما تحويه تلك العوامل من إحساسات الطفل بالحب أو الكراهية نحوهما . وقد وجد أن حب الطفل لوالديه تدخله عناصر جنسية ومن هنا يكون ذلك الحب فيه بعض الميول الداعرة التى تتنافى مع أبسط قواعد العادات والتقاليد والأخلاق ؛ ولذلك تظهر قوة عقلية أخرى تعارض هذه الميول وتكفها عن أن تظهر فى ميدان الشعور ؛ وبذلك نجد أن تلك الميول الداعرة تخضع للكبت الشديد وتتقهقر تلك الرغبات إلى مناطق اللاشعور ولا تظهر فى السلوك الظاهرى إلا بشكل رمزى أو فى صورة متنكرة . ومن ناحية أخرى نجد أن العلاقات والصلات بين أفراد العائلة تثير فى كثير من الأحيان انفعالات وميولا عدائية فى نفس الطفل ، ولكن هذه الميول هى أيضاً لاتتفق مع الأوامر الخلقية الشعورية ولذا تخضع بدورها للكبت وتتقهقر إلى اللاشعور ، وقد يرتبط عنصرا الحب والكراهية أحدهما بالآخر و يتلازمان بحيث أن الحب الموجه إلى فرد من أفراد العائلة تصحبه فى العادة كراهية موجهة نحو فرد آخر يكون فى الغالب متمتعاً بحب ذلك الشخص الأول الذى يتوجه إليه الطفل بحبه . والقاعدة العامة فى علاقة الطفل بوالديه أن الطفل يتجه بحبه نحو الوالد الذى من الجنس المغاير لجنسه و بكراهيته نحو الوالد الذى من نفس الجنس[1] . فالطفل يعتبر أمه هى موضوع حبه الأول و يحاول أن يستأثر بحبها لنفسه ولكنه يجد أن هناك شخصاً آخر ينافسه فى ذلك وهو الأب ولذا تثور فى نفسه انفعالات الغيرة والكراهية نحو أبيه و « يرجو » لو يستطيع أن يتخلص من أبيه حتى يتمتع بموضوع حبه خالصاً لنفسه . كذلك نجد أن الفتاة تشعر بالضيق من عشق أبيها لأمها ومن الاهتمام الذى يوليه نحوها ثم ما تلبث أن تجد فى أمها عدواً جنسياً يشاركها فى حب أبيها ، بل قد تصور الفتاة لنفسها أنها

(١) Flügel : op. cit : p. 10-12

ينبغى أن تحل محل أمها وقد تعمل بالفعل على ذلك لو سنحت الفرصة[١] . ونحن نجد مظاهر ذلك الموقف الثنائى فى حياتنا اليومية حين يتشاجر الوالدان فنجد أن الإبن ينحاز فى العادة إلى جانب أمه بينما تنضم الفتاة إلى صف أبيها .

ومن هنا نجد عند الأطفال انفعالات لاشعورية غرضها قتل الأب (أو على الأقل إلحاق الأذى به) لتحرير الأم منه ، والزواج من الأم موضوع الحب الأول . وهذه الميول الانفعالية اللاشعورية تظهر بكثره فى الأحلام . ويقول فرويد إن هذا الحلم من أهم الأحلام النموذجية . كذلك تظهر هذه الميول اللاشعورية فى كثير جداً من الأساطير التى تعتبر أسطورة أوديبوس أكمل نموذج لها فعلى ضوء هذا الموقف الذى يقفه الطفل من والديه أو على الأصح على ضوء هذه الانفعالات اللاشعورية يمكن أن نفسر أسطورة أورانوس وكرونوس وزوس التى سبق الكلام عنها فى بداية هذا المقال، فكل تلك الآلهة تزوجت أمهاتها كما أن اثنين منها ثارا ضد آبائهما . وهذا النوع من الأساطير يشيع بكثرة فى كل الشعوب القديمة كاليونان ومصر وبابل ، بل ويوجد عند سكان إفريقية والهند والصين ، ففى إفريقية مثلا أسطورة عن أن السماء والأرض كانا فى حين من الدهر ملتصقين فى عناق أبدى حتى قام أحد أبنائهما وفصل بينهما وقتل الأب وتزوج الأم . ولا يزال قبائل الكالانج حتى الآن يعتقدون أنهم انحدروا عن كلب تزوج امرأة وأن ابنهما قتل الكلب الأب وتزوج أمه دون أن يدرى ماهيتهما[٢] فهذه الأساطير إذن يمكن تفسيرها بإرجاعها إلى عقدة أوديبوس التى تتمثل فى عداء الابن نحو أبيه وميله الداعر نحو أمه . كما أن هناك أساطير تمثل ميول الفتاة اللاشعورية الداعرة نحو أبيها ومن أهم هذه الأساطير أسطورة ميرها التى أحبت أباها

(١) من الأمثلة الواقعية التى يذكرها فرويد لذلك مثال طفلة فى الثامنة من عمرها كانت تدعى أنها الخلف الطبيعى لأمها فى كل شىء ولذا كانت تنتهز فرصة غياب الأم خارج البيت لكى تقوم بدورها فى كل شىء كأن تحل محلها على المائدة وتقوم بكل الأعمال المنوطة بها وخاصة فيما يتعلق بالأب . كذلك يذكر فرويد قصة طفلة أخرى فى الرابعة من عمرها كانت تقول : « إن أمى تستطيع أن تغادر البيت الآن وسوف يتزوجنى أبى وأكون امرأة له » وكانت تسلك فى كل سلوكها على هذا الأساس . راجع — فرويد : تفسير الأحلام ص ٢١٩ .

(٢) Frazer : Totemism and Exogamy. vol. IV.p. 173.

وأخذت تتقرب إليه وتغريه حتى ضاجعها ومسختها الآلهة إلى شجرة المر الكاوى[١]

ب — ولكن هناك مع ذلك أساطير أخرى ليست أقل انتشاراً من السالفة ومع ذلك لا يصلح معها ذلك التفسير الذى يقوم على أساس افتراض وجود عقدة أوديبوس فى النفس وميل الطفل إلى أن يحب الأب الذى كان من الجنس المغاير وكراهية الأب الذى من نفس الجنس . ففى كثير من الأساطير نجد أن الإبن بدلاً من أن يقتل أباه ويتزوج أمه التى تفرض مدرسة التحليل النفسى أنها موضوع حبه الأول ، يقتل أمه انتقاماً لأبيه وهو موضوع كراهيته الذى يود أن يتخلص منه. مثال ذلك أن أورستس عند اليونان كانت أمه قد قتلت أباه أجاممنون لتتزوج من عشيقها إيجستوس فغضب أورستس لذلك وانتقم لأبيه بأن قتل أمه . فأمام هذا النوع من الأساطير ينهدم افتراض وجود عقدة أوديبوس وهى الفكرة المحورية الأساسية التى ترتكز عليها مدرسة التحليل النفسى فى تفسيرها للأساطير . فما موقف مدرسة التحليل النفسى من هذه الأساطير .

الواقع أن التحليل النفسى أثبت أيضاً أن الطفل قد يحس فى بعض الحالات بالغيرة ليس نحو الوالد الذى من نفس الجنس sex كما هو المألوف بل من الوالد الذى من الجنس الآخر ، والذى كان ينبغى أن يكون — فى الحالات الطبيعية — موضع حبه . وقد يكون هذا الشذوذ ناشئاً فى بعض الحالات عن ميول الطفل نحو الجنسية المثلية homo-sexuality أى أن الطفل تتكون عنده ما يسميه فرنسزى Ferenczi « عقدة أوديبوس المقلوبة inverted Œdipus complex وبذلك يمكن تفسير هذه الأساطير على أساس هذه العقدة النفسية التى تتكون فى بعض الحالات الشاذة[٢] كذلك بيّن التحليل النفسى من ناحية أخرى أن الإنسان يميل إلى توقيع العقوبة

---

(١) تعرف الرغبات الانفعالية اللاشعورية الموجودة عند الفتاة والتى تتعلق بحب الأب وكراهية الأم بعقدة إلكترا Electra Complex وهى صورة معكوسة لعقدة أوديبوس أو صورة نسوية لها . وقد سميت عقدة إلكترا نسبة إلى الكترا التى ساعدت أخاها أورستس على قتل أمهما انتقاما لقتلها أبيهما أجاممنون.

(٢) Flügel : op. cit. p. 59-60.

على الشخص الذى يرتكب جريمة من الجرائم وجد المعاقب شيئاً من الصعوبة فى كبتها والانصراف عنها . وعلى ذلك فأورستس حين يعاقب أمه إنما يعاقبها على رغباته هو اللاشعورية أى لأنها أخرجت إلى حيز التنفيذ والواقع الرغبة اللاشعورية التى كان أورستس يكبتها فى نفسه وهى قتل أبيه . فهنا إذن نجد عقدة أوديبوس أيضاً العامل الفعال الذى صدر عنه قتل أورستس لأمه .

بل إن الأمر لا يخلو من وجود أسس ودوافع أخرى عميقة كانت هى الحافز لأورستس على ذلك الفعل . فإذا كان فرويد قد بين أن الطفل يتجه بميوله ورغباته العدائيه نحو الوالد الذى من الجنس الآخر فإن مسز كلاين Mrs Klein قد بينت أخيراً أن الطفل ذكراً كان أم أنثى ـ يتجه فى الحقيقة بهذه الرغبات العدائية فى أول الأمر نحو الأم ، بل الظاهر أن هذه الرغبات تبدأ عند الطفل من كلا الجنسين قبل أن تتكون عنده فكرة عن الأب ولذا تعرف هذه العوامل باسم العوامل قبل الأوديبية pre-œdipean factors [1] وهى تتكون فى الطفل منذ أيام الرضاعة وقبل أن يكون للطفل أى سيطرة على أعضائه التناسلية أو غيرها من الأعضاء . ففى هذه الفترة تتركز اللبيدو فى الفم الذى يعتبر هو العضو الأساسى الذى يحاول الطفل أن يفرض به إرادته على العالم ، ويبنى الطفل انفعالاته العدائية فى هذه الفترة على العض والمضغ والابتلاع [2] . ومع أن هذه المرحلة تليها مراحل أخرى فى نمو حياة الطفل الجنسية إلا أن هذه الرغبات الانفعالية العدائية تبقى كامنة فى اللاشعور وتجد لها صدى فى أحلامه وفى الأساطير التى على نسق أسطورة أورستس . . وبذلك نجد أنه يمكن تفسير أسطورة أورستس (وما شابهها) بردها إما إلى عقدة أوديبوس المقلوبة أو إلى أن أورستس يعاقب أمه على تنفيذ نفس الرغبات التى كان يكبتها فى نفسه (أى

---

(١) Money-Kyrle — p. 38.

(٢) راجع فى ذلك مقال الدكتور يوسف مراد عن « نمو الطفل العقلى وتكوين شخصيته » فى عدد يونيو ١٩٤٦ من مجلة علم النفس . صفحة ١٣ و ١٤

على أساس عقدة أوديبوس) وإما إلى أن أورستس بقتله أمه يشبع الدافع البدائى عنده لمهاجمتها وتعذيبها sadism [١].

حـ ـــ وقد لا تذهب ميول الطفل اللاشعورية إلى حد قتل الأب للتخلص منه ولتحرير موضوع اللذة الأولى لنفسه ، بل قد يكتفى الطفل بالرغبة فى حرمان الأب من الأداة التى يجنى بها اللذة من الأم ، فبدلا من أن يرغب الطفل فى قتل أبيه يكتفى بأن يجرى له عملية الإخصاء . وقد بينت مدرسة التحليل النفسى أن رغبة الطفل فى إخصاء أبيه هى من المكونات اللاشعورية الأصلية التى لا يشعر بها الطفل مع وجودها، وتسمى مدرسة التحليل النفسى هذه الرغبة المكبوتة « عقدة الإخصاء » castration complex وعلى ضوء هذه العقدة يمكن تفسير كل الأساطير التى تظهر فيها الآلهة وهى تخصي آباءها مثل أسطورة كرونوس الذى خصى أورانوس وست الذى خصى أوزيريس وهكذا .

وعملية الإخصاء تجرى فى الغالب للأب أثناء الجماع الجنسى بين الوالدين كما ذكر من قبل . ولكن هذه العملية لا تتخذ دائماً الصورة الواضحة الصريحة التى تظهر عليها فى الأساطير التى ذكرناها، وإنما قد يتخذ الإخصاء شكلا رمزياً أو يظهر فى صورة متنكرة كما هو الحال فى كثير من الأساطير التى تظهر فيها على الأخص الشياطين التى تتميز ببعض الخصائص القضيبية phallic على ما سنبين فى مقال قادم من هذه المجلة. ففى أسطورة أوديبوس نجد أن الإسفنكس تلقى على أوديبوس سؤالا هو : ما هو الشىء الذى يسير على أربع فإذا كبر سار على قدمين فإذا كبر سار على ثلاث فيجيب أوديبوس إنه الإنسان ، ثم يقتل الاسفنكس . ولكن جيزا روهايم [٢] بين أن الحل الصحيح ليس هو الإنسان كما تقول الأسطورة ولكنه شخصان فى حالة جماع جنسى. بل إن الإسفنكس ذاتها رمز لهذين الشخصين ، فهى تتميز بكثرة أرجلها مما قد يؤخذ

(١) راجع بصدد الدوافع العدوانية اللاشعورية كتاب الدكتور صبري جرجس « مشكلة السلوك السيكوباتى » ص ٢٣٢ وما بعدها . (دار المعارف للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٦)

(٢) Géza Roheim : op. cit. p. 22

على أنها شخصان (الأب والأم) مجتمعان فى شخص واحد ، فهى بذلك تمثل الميل الأساسى الذى يظهر فى الطفل حين يرى الجماع بين أبويه لأول مرة primal scene ومثل الإسفنكس إذن هو رمز على الإخصاء أى إخصاء الأب وهو مجتمع مع الأم . وكذلك الحال فى أساطير أخرى كثيرة مثل أسطورة ميدوزا ذات الأسنان الطويلة والثعابين الملتفة حول رأسها بدلا من الشعر واللسان المدلى فإن هذه كلها رموز قضيبية، وقطع برسيوس لرأسها رمز بذلك إلى الإخصاء[١] كذلك قد يتخذ الإخصاء أشكالا ورموزاً أبعد من ذلك فى التنكر مثل اقتلاع العين أو كسر الساق وغير ذلك .

ثانيا — موقف الطفل من إخوته وأخواته :

موقف الطفل من إخوته وأخواته له الأهمية الثانية فى حياته وسلوكه بعد موقفه من والديه . ويتميز هذا الموقف بأن أول شعور يشعر به الطفل نحو إخوته هو الكراهية والنفور . ومنشأ هذه الكراهية هو مايحس به الأطفال من الغيرة من بعضهم البعض لاشتراكهم جميعاً فى حب الأم ؛ فكل طفل منهم يود أن يجذب لنفسه كل اهتمام أمه ويحظى بحبها دون سائر إخوته . والقاعدة العامة فى موقف الطفل إزاء إخوته هى أن الطفل الصغير يثيره مايتمتع به أخوه الأكبر من مميزات سبق أن نالها قبل أن يولد هو ؛ وأن الطفل الأكبر ينظر إلى أخيه الأصغر على أنه دخيل على العائلة وأنه سوف يشاركه حب والديه — وخاصة الأم موضوع الحب الأول — وسوف يقتطع لنفسه جزءاً من عطفها ويحرم أخاه منه . وأكثر ماتكون الكراهية بين الإخوة الذين من أعمار متقاربة بينما هى لاتظهر بين الذين تفصل بينهم سنوات عديدة وذلك لاختلاف رغباتهم[٢] . ولكن هذه الكراهية وما يصاحبها من ميول عدائية تتقهقر فى الأغلب إلى اللاشعور وتظل كامنة هناك وإن كانت تجد متنفساً لها فى الأحلام والأساطير .

---

(١) Money-Kyrle: p.39

(٢) Flügel : *op. cit.* p. 11 *sqq.* & 19. *sqq.*

وعلى ضوء هذا الموقف يمكن تفسير الأساطير التى حيكت عن حوادث التصادم والعداء بين الأخوة والتى تعتبر الأسطورة المصرية عن قتل أوزيريس بيد أخيه ست نموذجاً لها ، كما يمكن أيضاً تفسير تلك القصة القديمة جداً التى ذكرتها الكتب السماوية المقدسة عن قتل هابيل بيد أخيه قابيل . فبعيداً عن النص الدينى لهذه القصة يمكن لنا — من الناحية العلمية البحتة — أن نؤول تقبل الرب للقربان من هابيل على أنه رمز لما يتمتع به الأخ الأصغر فى العادة بعد ولادته من حب والديه وانصراف الأم على الخصوص إلى الاهتمام به وبالتالى حرمان الأخ الأكبر من ذلك الحب والاهتمام مما يولد فى نفسه شعور الغيرة والكراهية نحو أخيه وهو ما يعرف فى التحليل النفسى بعقدة قابيل Cain complex ولكن هذه العقدة تتكون فى نفس الطفل الأكبر نحو أخيه الأصغر بينما نحن نجد أن الأمر على عكس ذلك فى الأسطورة المصرية إذ أن ست (الأخ الأصغر) هو الذى يحس بالغيرة والحسد من أخيه الأكبر نتيجة لما اختص به أوزيريس من مزايا . فالأسطورة تمثل لنا أوزيريس على أنه ملك مصر وأنه هو الذى علم الناس الزراعة وأدخل الحضارة ونشر المدنية والسلام فى الأرض فدانت له مصر وغير مصر من الربوع والبلاد مما أثار عليه حفيظة ست ؛ وهذا تمثيل لما يحس به الأخ الأصغر فى العادة من رغبات انفعالية عدائية نحو أخيه الأكبر لما اختص به من ميزات دونه . فقتل ست لأخيه ليس إلا إخراجاً لتلك الرغبات الانفعالية المكبوتة فى نفس الطفل الأصغر والتى يمكن لنا أن نسميها عقدة ست .

بيد أن مدرسة التحليل النفسى لا تسلك فى أسطورة أوزيريس وما شابهها هذا المسلك الذى سلكناه والذى نعتقد أن لا غبار عليه لأنه يقوم فى أساسه على الرغبات الانفعالية التى يحس بها الطفل نحو أخيه الأكبر والتى تعترف مدرسة التحليل النفسى ذاتها بوجودها فى نفس الطفل الصغير ؛ وإنما تحاول هذه المدرسة رد مثل هذه الأسطورة إلى عقدة أوديبوس التى رأينا أنها هى النقطة المركزية التى تدور حولها كل تفسيرات هذه المدرسة للأساطير . فلقد تزوج أوزيريس من أخته إيزيس

والإثنان أكبر سناً من ست أى أنهما بمثابة الوالدين منه ؛ فالأخ الأكبر كان يعتبر فى الشعوب البدائية وفى الشعوب القديمة على العموم بمثابة أب لأخوته الصغار وخاصة بعد أن يموت الأب الحقيقى ولا تزال بعض بقايا هذا النظام موجودة إلى الآن فى كثير من الشعوب . كذلك الحال فيما يختص بالأخت الكبرى إذ تعتبر بمثابة الأم من إخوتها الصغار ؛ وبذلك نستطيع أن نقول إن إيزيس هى أم ست وليست أخته فحسب ، وأن أوزيريس هو أبوه وليس أخاه فحسب . فكأن ست قتل أباه (الذى هو أخوه فى نفس الوقت) وأراد أن يتزوج من أمه (التى هى أخته فى نفس الوقت أيضاً). وبذلك نجد أن هذه الأسطورة يمكن تفسيرها على أساس عقدة أوديبوس [١] . وهناك رواية تقول إن حورس (وهو ابن أوزيريس من إيزيس) وست هما فى الواقع اسمان لشخص واحد ، فلو أخذنا بهذه الرواية أيضاً لكان ذلك يعنى أن ست (أو حورس) قتل أباه وأراد أن يتزوج أمه حسب عقدة أوديبوس أيضاً [٢] . وإذا كانت الأسطورة تقول إن حورس قتل عمه ست أو خصاه (وهـذا هو الغالب) فإنه يكون بذلك قد خصى نفسه عقاباً له على قتله أبيه مثلما فعل أوديبوس بنفسه تماماً . ومن ناحية أخرى نجد أن الأسطورة تنص على أن حورس قد اقتلع عينه وقدمها قرباناً لأبيه الميت وهى ما تعرف فى الشعائر الجنائزية عند المصريين القدماء بعين حورس ، واقتلاع العين هى — كما رأينا فى أسطورة أوديبوس — رمز إلى الإخصاء أى أن حورس يكون بذلك قد خصى نفسه عقاباً له على رغباته الداعرة نحو والديه ... ونجد كل هذه الملامح فى أسطورة مصرية أخرى هى قصة الأخوين أنوبو و بيسيو ، فأنوبو الأخ الأكبر يتهم أخاه الأصغر بيسيو بأنه يراود امرأته عن نفسها ، وأراد بيسيو أن يدفع عن نفسه ذلك الاتهام فخصى نفسه أمام أخيه . فأنوبو هنا رمز للأب ؛ وموقف بيسيو من أخيه وزوجه رمز لموقف الطفل من أبيه وأمه ؛ أما

(١) Money-Kyrle : Ibid. p. 33

(٢) راجع فى ذلك : Géza Roheim : Animism, Magic and the Divine King p. 27, *sqq*..

الإخصاء فهو عقاب يوقعه بيسيو على نفسه جزاء على رغباته اللاشعورية وإن لم تكن تلك الرغبات قد تحققت بالفعل[١].

* * *

إننا لانستطيع بالطبع أن نعرض هنا إلى كل الأسطير المعروفة أو حتى الأساطير المشهورة ولذا اكتفينا هنا بذكر بعض الأساطير التى يمكن اعتبارها أساطير نموذجية تعطى لنا فى مجموعها صورة عامة صادقة عن أساطير العالم كله . وعلى ضوء دراستنا لتلك النماذج نجد أن مدرسة التحليل النفسى ترى أن الأساطير تمثيلات مموهة متنكرة لبعض الرغبات الانفعالية اللاشعورية الداعرة التى تتكون فى نفس الفرد نتيجة لاحتكاكه بالبيئة الأولى التى ينشأ فيها ، أى نتيجة للمؤثرات الأولى العميقة التى يتلقاها الطفل على الأخص من صلته بوالديه وإخوته . ويمتاز التفسير السيكو تحليلى للأساطير على غيره من التفسيرات فى أمرين : الأمر الأول أنه يبين لنا السبب فى تلك الرغبة العامة الموجودة فى كل شعوب الأرض على اختلاف ألوانها وثقافاتها إلى الأساطير ، وذلك بإرجاع الأساطير إلى تلك الدوافع اللاشعورية العامة الكامنة فى النفس البشرية على العموم . والأمر الثانى أنه يبين لنا السبب فى أن الأساطير تنسب كل تلك الأفعال إلى الآلهة على رغم ما فيها من عناصر غير معقولة وغير خلقية وذلك بافتراض أن هذه الأفعال المنسوبة إلى الآلهة ليست فى حقيقتها سوى إسقاطات projections للميول اللاشعورية الكامنة فى النفس على تلك الآلهة.

ولكننا لانستطيع أن نوافق مدرسة فرويد فى اعتبارها موقف الطفل من والديه أهم موقف له أثره فى نفس الطفل مما يجعلها تقلل من أهمية ماينشأ من انفعالات وميول عن علاقة الطفل بغير الوالدين من أفراد العائلة . وقد كان من نتيجة هذا الاتجاه أن مدرسة فرويد تحاول أن ترد كل العقد التى تتكون فى نفس الطفل نتيجة لهذه العلاقات إلى عقدة أوديبوس ؛ وتتبع لتعزيز ذلك طريقة هى أشبه شىء بتخريجات مولر اللغوية فتعتبر الابن الأكبر مثلا بديلا عن الأب ورمزاً له وتعتبر الأخت الكبرى رمزاً للأم

(١) Money-Kyrle : Ibid. p. 34.

وهكذا ، أى أنها تعتبر تلك الشخصيات مجرد تنكرات طفيفة لشخصية الأب والأم . نحن إذن لا نذهب مع مدرسة فرويد إلى هذا الحد من تعليق كل هذه الأهمية التى تكاد تكون مطلقة على عقدة أوديبوس ، وخاصة أن التحليل النفسى ذاته قد أثبت وجود عقد مستقلة تماماً تتكون فى نفس الطفل نتيجة لاتصاله ببقية أفراد العائلة غير الوالدين ؛ مثل عقدة قابيل أو مثل ما أسميناه نحن عقدة ست التى تتكون فى نفس الأخ إزاء أخيه .. أضف إلى ذلك أن افتراض وجود عقدة أوديبوس لا يصدق فى الواقع على كل المجتمعات وإنما يصدق فقط على المجتمعات الأبوية ، التى تكون فيها السلطة للأب بينما هناك مجتمعات أخرى السلطة فيها للأم ففى هذه المجتمعات لا تتكون فى نفوس الأطفال عقدة أوديبوس على ما بين مالينوفسكى .

Résumé

A. ABOU ZEID : LA PSYCHANALYSE DES MYTHES

L'auteur souligne tout d'abord l'étroite analogie qui existe entre certains mythes egyptiens, grecs et babyloniens. La plupart des mythes qui ont des dieux pour héros rapportent des faits qui paraissent monstrueux à la raison.

Diverses explications ont été données des mythes : historique, moraliste, allégorique, linguistique de Max Müller, etc... Ces explications sont partielles, souvent superficielles, parfois fantaisistes. Le mythe étant une forme d'expression de l'âme humaine, l'explication, pour être exhaustive, doit en être recherchée dans l'analyse de l'âme humaine. L'explication psychanalytique des mythes se place d'emblée sur ce terrain. Qu'est-elle et quelle en est la valeur ?

Les psychanalystes ont noté l'étroite ressemblance entre les rêves que Freud qualifie de typiques et les mythes célèbres. Le mythe serait lui aussi une sorte de satisfaction déguisée de désirs refoulés.

L'explication psychanalytique repose dans son ensemble sur l'application du complexe d'Œdipe qui ne tient compte que des relations de l'enfant vis à vis de ses parents; l'auteur considère qu'il faut aussi tenir compte des relations de l'enfant vis à vis de ses frères et sœurs. Il propose de faire appel, dans l'explication de certains mythes, en plus du complexe de Caïn, au *complexe de Seth;* car d'après le mythe egyptien d'Osiris, Seth tue Osiris son frère aîné. Quant à l'identification du frère aîné avec le père et de la sœur aînée avec la mère, en vue de ramener toute explication au complexe d'Œdipe, l'auteur juge qu'elle ne tient pas assez compte de toute la complexité des relations familiales : les rapports entre frères et sœurs possèdent eux aussi leurs caractères spécifiques qui ne dérivent pas entièrement des rapports entre enfants et parents.

L'explication psychanalytique présente ce double avantage de mettre en lumière le rôle des impulsions inconscientes dans l'élaboration du mythe, puis le mécanisme de leur projection sur des divinités.